المحاضرة السّادسة: المدارس النّحوية (2)

تمهيد

يحيلنا الحديث عن نشأة مصطلح المدارس النحوية إلى الحديث عن مناهج النحويين واختلاف آرائهم في الأصول والفروع وهل يرقى هذا الاختلاف لتتميز منه مذاهب ومدارس لها حدود واضحة المعالم ، أم إن الخلاف يقف عند الفروع لا يتجاوزها فلا يستحق أن يطلع عليها مدرسة أم إنه أقل من ذلك فهو مذهب واحد وطريقة واحدة تختلف بعض فروعها اختلافا يسيرا داخل نطاق المنهج ولا يخرج عنه..

وقبل التفصيل في ذلك ينبغي الإشارة إلى أن موضوع التقسيم مر بثلاث مراحل هي:

- تسمية العلماء بأمصارهم وبلدانهم مما يوحي بوجود مذهب خاص بهم أو العكس.

- تقسيم مناهجهم وطرائقهم وتسميتها بـ " مذهب " وهي مرحلة تالية للمرحلة السّابقة.

- إطلاق اسم " مدرسة " على المذهب أو على أهل الأمصار وهي تسمية أطلقت حديثا في الوقت المعاصر، و بيان ذلك على النّحو الآتي:

أولا:

"يتضح من عرض مناهج الذين أرخوا للنحو والنحاة من القدماء أنهم اتبعوا في ترتيبهم نسبتهم للبلد الذي ظهروا فيه وتعلموا نحوه ودرسوه أو درّسوه فهم بصريون وكوفيون وأهل بغداد"[1].

"وأول من يلقنا من القدماء محمد بن سلام الجمحي (139-231هـ) الذي قال :" وكان لأهل البصرة

[1] ينظر، خديجة الحديثي، المدارس النحوية ، ص 13 -

في العربية قدامة وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية "[1].

وترجم لأبي الأسود الدؤلي وعدّه مؤسس علم العربية وليحيى بن يعمر ولعبد الله بن إسحاق الحضرمي ولأبي عمرو بن العلاء وانتهى بالخليل بن أحمد الفراهيدي ولم ينسبهم إلى مدرسة وإنما عدَّهم من أهل البصرة [2].

وأعقبه أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (213 – 276 هـ) الذي عقد في كتابه "المعارف" بحثا لرواة الشعر وأصحاب الغريب والنحو وترجم بإيجاز لمعظم من اشتهر بهذه العلوم من البصريين والكوفيين ... ويلاحظ في ترجمته لهم أنه لم يذكرهم مقسمين إلى بصريين وكوفيين معتمدا على شهرتهم ولم يسمهم بمذهب أو مدرسة [3].

و بعدهما أبو الطيب عبدالواحد بن علي اللغوي الحلبي (ت 351هـ) فألف كتاب **"مراتب النحويين"** ورتبه حسب الزمن مبتدئا بالبصريين لأن النحو في البصرة كان أقدم نشوءا منه في الكوفة ، وكانت أول إشارة إلى الكوفة عند ترجمته لأبي جعفر الرؤاسي حيث قال : وممن أخذ عن أبي عمرو أبو جعفر الرؤاسي عالم الكوفة [4].

والدليل على أنهم كانوا ينسبون النحاة إلى البلد ويذكرونه في ترجمتهم بحسب البلدان أن أبا الطيب ختم

---

[1] ينظر : طبقات فحول الشعراء 1 ، ص 12

[2]–خديجة الحديثي ،المدارس النحوية، ص 7.

[3] المرجع نفسه، ص 8

[4] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

كتابه بعد الانتهاء من ذكر البصريين والكوفيين بقوله :" ولا علم للعرب إلا في هاتين المدينتين "[1].

ثانيًا:

كان أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي (ت 379هـ) أول من استخدم كلمة " مذهب " عندما ترجم لأصحاب ثعلب فقال عن أبي موسى الحامض : " كان بارعا في اللغة والنحو على مذهب الكوفيين "[2].

"وقال عن ابن كيسان وكان بصريا كوفيا يحفظ القولين ويعرف المذهبين وكان أخذ عن ثعلب والمبرد وكان ميله إلى مذهب البصريين أكثر ... وكان أبو بكر ابن الأنباري شديد التعصب على ابن كيسان والتنقص له وكان يقول : خلط فلم يضبط مذهب الكوفيين ولا مذهب البصريين"[3].

ومن هنا يتضح أن الزبيدي كان أول من قسم النحاة إلى مجموعات بحسب البلدان التي عرفوا بها وكان أول من استخدم عبارات "مذهب الكوفيين" و "مذهب البصريين" و "المذهبين" لآراء نحاة الكوفة أو لآراء نحاة البصرة أو لنحاة المدينتين[4].

وجاء بعده ابن النديم· (ت 385 هـ) واتبع التقسيم نفسه إلا أنه سمى نحاة بغداد "من خلط المذهبين"[5]

وبعدهما جاء أبو البركات الأنباري (ت 577 هـ) فقد اتبع في كتابه "نزهة الألباء في طبقات الأدباء" التسلسل الزمني ولم يذكر كلمة مذهب إلى مع البغداديين في الغالب كقوله : " وكان يخلط المذهبين " أو

---

[1] المرجع نفسه ، ص 10

[2] ينظر : طبقات النحويين واللغويين، ص 170

[3] ينظر : المصدر نفسه ، ص 170-171

[4] -خديجة الحديثي، المدارس النحوية ، ص 11

[5] المرجع نفسه،الصفحة نفسها.

" وكان قيما بمذهب البصريين والكوفيين "[1].

ثالثًا:

استحسن الباحثون المحدثون مصطلح "المدرسة" بمعنى المذهب النحوي وقد كانوا في ذلك متأثرين بالغربيين الذين شاع عندهم هذا المصطلح بهذا المفهوم ونجاحه في الدراسات الأدبية فكان عندهم المدرسة الكلاسيكية في الأدب والفن والمدرسة الرومانتيكية والمدرسة الرمزية[2]

وكان من أوائل من استخدم هذا المصطلح "جوتولد فايل" الذي سماهما المدرسة البصرية والمدرسة الكوفية وتبعه في ذلك "بروكلمان" الذي قال : " وقد قسم علماء العربية مذاهب النحو إلى ثلاث مدارس : البصريين والكوفيين ومن مزجوا المذهبين من علماء بغداد "[3].

واستخدم المحدثون الكلمة نفسها ولعل الدكتور مهدي المخزومي أول من تبنى هذه التسمية فسمى أحد كتبه "مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو"، وألف الدكتور شوقي ضيف كتابا سماه "المدارس النحوية" وألف الدكتور عبدالرحمن السيد كتابا سماه "مدرسة البصرة النحوية [4].

1-مفهوم المذهب والمدرسة:

أ-المذهب النحوي:

---

[1] المرجع نفسه، ص 12

[2]- عبد الله الخثران، مراحل تطور الدرس النحوي. ، ص148

[3] ينظر : تاريخ الأدب العربي، ص 124- 125

[4]-خديجة الحديثي، المدارس النحوية ، ص 13

هو مصطلح فقهي في بداية نشأته، فيقال مذهب الإمام الشافعي أو الإمام مالك أو مذهب شيخنا ... وانتقل إلى اللغة فأصبح يدلّ على مجموعة مبادئ وآراء متصلة ومنسقة لمفكر ما أو لاتجاه معين..

وفي التعريف النحوي: طائفة من أولي العلم الواحد تعتنق مذهبا نحويا وتقول برأي نحوي مشترك وتجمعهم وحدة أصوله ومناهج البحث فيه وإن تعددت أوطانهم واختلفت أجناسهم ومهما تنوعت شخصياتهم وتباعدت آراؤهم في الفروع [1].

ب–المدرسة النحوية:

المعنى اللغوي: جاء في لسان العرب: "درست: أي تعلمت، ودرست الكتاب أدرسه درسًا أي ذللته بكثرة القراءة حتى خف حفظه علي" .

و المدرسة في اصطلاح النّحويين موضّحة في أقوال العلماء كما يأتي:

ذكر الدكتور أحمد مختار عمر مصطلح المدرسة في النحو فقال: "... فإن هذا المصطلح يعني في نظرنا [والكلام كلامه] وجود جماعة من النحاة، يصل بينهم رباط من وحدة الفكر والمنهج في دراسة النحو، ولابد أن يكون هناك الرائد الذي يرسم الخطة ويحدد المنهج، والتابعون أو المريدون الذين يقتفون خطاه ويتبنون منهجه ويعملون على تطويره والدفاع عنه" .

وقد عُرّف في المعجم الوسيط – بهذا المفهوم الجديد – فقيل : **" المدرسة جماعة من الفلاسفة والمفكرين أو الباحثين تعتنق مذهبا معينا أو تقول برأي مشترك "**[2].

و عرف "**جوتولد فايل**" المدرس بأنها : **"الاشتراك في وجهة النظر الذي يؤلف الجبهة العلمية ويربط**

---

[1] صالح بلعيد، في أصول النحو، . ص144

[2] عبد الله خثران، مراحل تطور الدرس النحوي، ص148 -

العلماء بعضهم ببعض على رأي واحد "[1].

و يذكر الأستاذ على النجدي ناصف المدرسة فيقول :" **المدرسة طائفة من أولي العلم الواحد أو الفن الواحد تجمعهم وحدة أصوله ومناهج البحث فيه وإن تعددت أوطانهم واختلفت أجناسهم ومهما تنوعت شخصياتهم العلمية وتباعدت آراؤهم في الفروع والتفاصيل.""**

في حين يعرفها الدكتور مهدي الخزمومي بقوله : " **فليست المدرسة إلا أستاذا مؤثرا وتلاميذ متأثرين وقد اجتمعوا على تحقيق غرض موحد نهجوا للوصول إليه منهاجا "**[2].

قال ذلك في مدرسة الكوفة عند كلامه على الكسائي إذ قال :" إن الكسائي بمنهاجه وأساليب دراسته مدرسة لها خصائصها ومناهجها فليست المدرسة إلا ..." ثم ساق التعريف، وقريب من هذا التعريف ما انتهى إليه الدكتور أحمد مختار عمر وهو قوله :" وجود جماعة من النحاة يصل بينهم رابط من وحدة الفكر والمنهج في دراسة النحو ولابد أن يكون هناك الرائد الذي يرسم الخطة ويحدد المنهج والتابعون أو المريدون الذين يعتنقون خطاه ويتبنون منهجه ويعملون على تطويره والدفاع عنه[3].

وقد أخذ محمد حسين آل ياسين في كتاب "الدراسات اللغوية" بتعريف "جوتولد فايل" حيث يقول:" المدرسة في المصطلح العلمي لفظ يطلع على جماعة من الدارسين تشترك في وجهة النظر ويكون لها نهج خاص يؤلف منها جبهة علمية ويربط أفرادها برابط الرأي الموحد "[4].

---

[1] خديجة الحديثي، المدارس النحوية، ص 14 -

[2] عبد الله خثران، مراحل تطور الدرس النحوي، مرجع سابق. ، ص 149 -

[3] خديجة الحديثي، المدارس النحوية، ص 14 -

[4] – مراحل تطور الدرس النحوي ، ص 149

وقد حاول الدكتور صالح بلعيد الجمع بين التعريفات السابقة فقال إن المدرسة : **" كلمة معاصرة تعني الجماعة الذي يشكلون درسا واحدا في بيئة معينة أو بيئات معينة متعددة ويجمعهم نهج واحد أو الاشتراك في وجهة النظر التي تؤلف جبهة علمية واحدة ووجود الجماعة الذي يصل بينهم رابط من وحدة الفكر والمنهج ويكون اتفاقهم على الأصول لا الفروع وعلى رأس المدرسة من يرسم الخطة ويحدد والمنهج وهو الشيخ أو الرئيس والمريدون الذي يعتنقون خطاه ويعملون على تطويرها الدفاع عنه "**[1].

مما سبق يظهر أن هذه التعريفات تتفق على وجود جماعة من الناس يعتنقون منهجا محددا ذا خصائص ومميزات يؤمنون به ويدافعون عنه وإن لم تجمعهم وحدة جغرافية، ولا يشترط الاتفاق على الفروع بل يكفي اتفاقهم في أصول المنهج.

ولعلّ ما يجمع بين التّعريفات السّابقة أنّها بهذا المعنى أو قريبة منه جدا ، ولذا يُلاحظ أنها بدأت بـ :" جماعة " أو " طائفة " وبدأت أحيانا بـ :" الاشتراك في وجهة نظر " أو " اتجاه له خصائص " وهما – الجماعة والمنهج – الركنان الأساسيان فيها.

فالمدرسة النحوية تطلق على مجموعة من النحاة ينضوون تحت إطار موحد في التفكير والمنهج، وتكون لهم مرجعية واحدة يصدرون عنها في دراسة النحو، ولكي تضمن هذه البوتقة صفة المدرسة لابد أن يكون لها أتباع مع مرور الزّمن.

---

[1]- المرجع نفسه، ص 149 – 150